تحدث السيد وزير الثقافة ، مفيد الجزائري ، الى صحيفة الشرق الاوسط اللندنية (2003/12/16) عن هموم الثقافة العراقية ، فاعرب عن تفاؤله بالمستقبل وثقته باقتلاع جذور الديكتاتورية والاستبداد والطغيان عن الفكر العراقي "ايا كانت مسمياتها" ، سواء كانوا من البعثيين او غيرهم ، ممن كانوا يتسترون تحت شعارات الحرية والديموقراطية ، وهم ابعد ما يكونون عن ممارستها ... بالاعتماد على العقول العراقية المتميزة في مجال الابداع في شتى انشطة مبادين الثقافة ... وفي اطار ديموقراطية الثقافة ـ باوسع معانيها ـ لتغيير الواقع المشوه عبر اطلاق العملية الثقافية القائمة على حرية الفكر وحرية الابداع واستبعاد اي نوع من الوصاية او الهيمنة على المنتوج الثقافي ... على ان تكون الكلمة الحاسمة والصادقة للمثقفين انفسهم ، باعتبارهم منتجي هذه الثقافة ومبدعيها في العراق.

الوزير المفيد وحديث عن الثقافة والديموقراطية

ابراهيم الداقوقي

كلام جميل وموزون ، يمثل امنيات المثقفين العراقيين بعد اربعة عقود من الاستبداد والقهر والاذلال ، ولكن كيف يمكن تنفيذ هذا الطرح الثقافي النظري على صعيد الواقع الثقافي العراقي كدستور لوزارته ، لاسيما وان السيد الوزير قد اشتكى من ان الرموز الثقافية من البعثيين لا زالوا يحتلون مناصب قيادية في وزارة الثقافة؟!!!

اننا نعتقد بانه كان على السيد وزير الثقافة تقديم شروحات ضافية ـ كمسؤول اول عن الثقافة في البلد ـ لكيفية تنفيذ هذه الافكار الجديدة على الواقع الثقافي العراقي المتشرذم والعقيم والداخل ، البعيد عن الابداع بعد اقصاء معظم المبدعين او هجرتهم او القضاء عليهم في سجون الطاغية ، قبل الطلب الى المثقفين واصحاب الرأي تقديم اقتراحاتهم لهيكلة الوزارة . لاسيما وان السيد الوزير يمثل تيارا سياسيا ، كان بمثابة مدرسة ـ كما قال الكاتب حسن العلوي ـ لكل المثقفين المناضلين ضد الاستبداد والاستغلال والتبعية خلال خمسينيات وستينيات القرن الماضي ، مع انتقادنا لإقصاء ذلك التيار ، للرأي الاخر . ومن هنا ، نعتقد ان المثقف مفيد الجزائري يتحمل مسؤولية اتخاذ بعض القرارات ـ او اقتراحها على مجلس الحكم ـ للبدء بمسيرة الاصلاح الثقافي ولتحقيق ديموقراطية الثقافة ، قبل هيكلة وزارته ـ وهي قضية قانونية اساسا ويمكن الاسترشاد بقانون وزارة الثقافة اللبنانية ، مثلا ، مع اضافة بعض التعديلات لصياغة الاطار العام للوزارة ـ وقبل الدخول في متاهات الروتين الحكومي ، وهي:

1- وضع ميثاق شرف اعلامي عراقي جديد وفق الواقع الفسيفسائي وضمن اخلاقيات المهن الاعلامية ، بالتعاون مع منظمات المجتمع المدني المعنية بديموقراطية الثقافة ، على ان يتضمن القاعدتين الذهبيتين التي اخذت بهما مواثيق الاعلام للقرن الحادي والعشرين ، وهما : الغاء الرقابة المسبقة على المطبوع العراقي ـ بكل انماطه ـ من اجل اطلاق حرية العقيدة والوجدان على اوسع نطاق من جهة ، وجعل المحاكم المدنية حكما في قضايا الاختلاف الثقافي والاعلامي بين القابضين على الحكم وبين المثقف ـ الاعلامي في البلاد من جهة اخرى.

2- خصخصة وسائل الاعلام العراقية ، مع احتفاظ الدولة بالاذاعة او التلفزيون للمنافسة مع تلك الوسائل الخصخصة ، وفق نظرية المسؤولية الاجتماعية ونمط الانظمة الاعلامية المختلطة (التنافسية) في مجال الاعلام الدولي. وقد يقول البعض ان هذه الفكرة مطبقة في العراق منذ سقوط الطاغية ، بحيث صدرت في العراق ـ منذ ذلك الوقت ـ حوالي 150 صحيفة والتي لا تزال ـ معظمها ـ تمارس العملية الاعلامية كهواية ، مع تسييس الثقافة لكي تكون ـ مع الاعلام ـ اداة للدعاية السياسية والتعبئة او التحريض وتوجيه الاتهامات ، بعيدا عن العمل الاعلامي ـ الثقافي الجاد والمبدع . بيد ان وسائل الاعلام الاخرى (الاذاعة والتلفزيون والفضائيات والى حد ما الانترنت) لم تشملها الخصخصة بعد ، رغم قيام قوات الاحتلال بانشاء تلفزيونها واذاعتها العابرتين عن ارائها في حربها النفسية ضد معارضيها الان وقبل رحيلها المتوقع غدا.

3- تشكيل اللجنة العليا للاعلام ـ التي ستكون البديل لوزارة الاعلام بعد الغائها ـ من اساتذة الجامعات والقانونيين والاعلاميين والمثقفين وعضوية كل الاحزاب ـ الحاكمة والعارضة ـ في البرلمان ، على ان يكون عدد ممثلي الحكم فيها اقل بعضو واحد . اضافة الى ضرورة تشكيل (محكمة الاعلام) من اعضاء اللجنة المذكورة ، وفق انتهاكات المثقفين ـ الاعلاميين لاخلاقيات المهن الاعلامية وللتشريعات الاعلامية ـ الثقافية من جهة ، ولاصدار القرارات الخاصة للمعاقبة والتوجيه والارشاد ، من جهة اخرى . لان الثقافة والاعلام وجهان لعملة واحدة ، رغم انقسامها الى وزارتين.

4- اختيار الكوادر الثقافية ـ الاعلامية العاملة في الوزارة من المؤمنين بالديموقراطية والحوار واحترام الرأي الآخر ، وفق مبدأي : الكفاءة والابداع الانساني ، بعيدا عن المحاباة والايديولوجية المتبناة وفي حيادتام من جميع الاراء والاتجاهات والاديان والمذاهب لكي تتفتح قلوب وردة ووردة في بستان العراق للثمر والواعد بالخير والعطاء والديموقراطية ، في اطار الوطنية الجديدة ، القائمة على التسامح والعمل البناء لعراق مزدهر وغد مشرق وضاء . اما اولئك البعثيون ، الذين لا زالوا يحتلون مراكز قيادية في وزارة الثقافة ـ كما اكد السيد الوزير ـ فلا بد ان ينالوا عقابهم اذا كانوا قد اجرموا بحق الوطن والاخرين ، وبعكسه فانهم يعدون مواطنين صالحين يمكن للوزارة ان تستفيد من خبرتهم وكفاءتهم ، لاسيما وان ثمة العشرات من المثقفين الذين غرر بهم ـ ترهيبا او ترغيبا ـ فاصبحوا ادوات في قطار الدكتاتور الرعب ، ولكنهم الان عادوا الى ذواتهم وثقافته الديموقراطية.

اما هيكلة وزارة الثقافة ، فيمكن الاسترشاد باحدث القوانين العاصرة لوضع الاطار العام لهذه الوزارة ذات الاهمية المتميزة وباولويات الوزير ـ المفيد ـ المفيدة ، وذات الافق الواسع للنهوض بالثقافة العراقية من وهدتها باز الة آثار التشوهات العميقة التي تعرضت لها في العقود الماضية وبمسح آثار الاغتراب والتعسف والاذلال من جبين المثقف العراقي المبدع ـ في الداخل والخارج ـ بتراثه التقدمي ـ الانساني ومبدعيه الذين طبقت شهرتهم الآفاق : محمد مهدي الجواهري ، فياتي ، بدر شاكر السياب ، نازك الملائكة ، جواد علي ، علي الوردي ، طه باقر ، علي جواد الطاهر ، كاظم السماوي ، محمد صالح بحر العلوم ، كاظم جواد... وغيرهم الكثيرون . ومن هنا فاننا نقترح ـ ولا يزال الحديث حول هيكلة وزارة الثقافة ـ على السيد الوزير ، ان يقيم في وزارته (مؤسسة الثقافة للنشر والتوزيع) المختلطة او شبه الرسمية ، من اجل نشر الكتاب العراقي وتعضيده وتوزيعه بوسائل الواصلات الرسمية او الخاصة باجور مخفضة ، وتقديم اجور مجزية للمثقفين المبدعين مع تشجيع المبدعين الشباب ولا سيما في مؤلفاتهم الاولى التي تستدعي الدعم والتعضيد . بعد ازمة الكتاب والقارئ التي رانت على المجتمعات العربية ، فاطاحت بالعديد من مؤسسات النشر والتوزيع في البلاد العربية ، وغمطت حق المبدعين في توفير الحياة الرفيهة والبهيجة لهم . لكي تقوم تلك المؤسسة بطبع الكتاب العراقي ـ على الطابع الخاصة ـ وبتوزيعه عن طريق وسائل الواصلات العراقية بعد وضع اسعار زهيدة عليه بحيث لا تتجاوز الدولارين او الثلاثة ، من اجل تيسير الثقافة للجميع من جهة ، وللقضاء على ازمة الكتاب من جهة اخرى.

وخلاصة القول :

ان اقتلاع جذور الديكتاتورية والاستبداد والطغيان والارهاب والوصاية الفكرية على الرأي العام ، ليس بالامر السهل لاسيما بعد ان عمدت الدكتاتورية الى تشويه الوعي وهدم القيم العراقية الاصيلة بوضع قيم نفعية قبلية وغير انسانية غريبة عن المجتمع العراقي ،

عن طريق غسل مخ جيلين من الشباب . بيد ان املنا قوي في مواجهة مثقفينا لهذا التحدي الاجتماعي الدمر ، وفي صحافتنا الجادة الملتزمة باخلاقيات الاعلام في فضح انماط هذا السلوك الاجتماعي الشين ، الذي لا يشرف احدا قط.

المتعة البصرية والروحية في الفنون كانت هاجس الفنان المسلم

شاكر الأنباري

لا تشمل العمارة الاسلامية العمارة الدينية فقط بل العمارة المدنية ايضا، ومايمثل تلك العمارة ليس المسجد والقصر والقلعة فحسب، بل المدرسة والخان والمقهى والفندق والحمام والبيت العادي بأشكاله من وعية وصحون، وادوات زينة. فالفن الاسلامي لم يفصل بين الفن والحياة، والفنان لم يكن ينجز عمله ليعرضه في متحف كما هي الحالة اليوم تماكان يستعمله في الحياة اليومية. الابريق للنقوش يستعمل للوضوء، والسجادة للصلاة والتدفئة، والصندوق لحفظ الاشياء الثمينة .. والخ. وهنا نجدنا مقتدرة الفن الاسلامي العربي الكبيرة في تحويل ابسط ادوات الحياة اليومية الى قطع فنية قيمة . كذلك لم يفصل الفن الاسلامي مابين الابداع والحرفة كما يحصل في الفن الغربي منذ عصر النهضة. فالقوس الوجود في الآنية المعقودة على خان اسعد باشا، لابد ان تكسر كآبته البصرية نقوش مضيئة وخطوط تحمل آيات قرآنية او اشكال مجردة توحي بالامتداد والحلق. وجدار الدثنة القصت ترقشه مقرنصات ذات ايقاعات متوالدة تلغي رتابة الحجر. اما الفسحة الكبيرة في الجدار فهي تتطلب من الحرفي كسر صخرتها بأماليد نباتية وتوريقات كما هو شائع في الجامع الاموي وسعد دمشق. وهكذا فالكل معد من العمارة مايناسبها من زخارف وفنون.

ولعل البراعة في هذا الفن تتجلى في التناسق الهائل الذي يراه المرء بين وظيفة البناء، ومعمار الفن. وكل هذا يشهد على اصالة الاحد، اصالة ينبغي استعادتها وسعد فوضى لهوية هذه الفوضى التي تسبح في خضمها جميعا. يبدو الزخرف الهندسي (الارابسك) على الواجهات وفي السقوف والجدران والفسقيات الناثرة للمياه، في كامل روعته عندما تتعانق فتجوم والكعبات والخطوط وتتشابك التوريقات في نسيج متكامل، ملون او مخطط، يمثل الوجود بجميع كائناته. وهي فلسفة اسلامية خالصة في التعامل مع الفن تؤكد في الكائنات اجمع روح الهيولي الجوهري. فيبدو التوريق ضمن شريط قد تكثر فيه العناصر الشكلية مكونة موضوعا متحركا ليس له بداية ولا نهاية. لتكرر العينة باستمرار وتصبو الى الجوهر بنوع من التسبيح او الذكر. انها تنقل المتلقي الى جمال الوجود المستمد من الرائي الى جمال الوجود المستمد من الخالق.

هناك معان كثيرة تدنى قائمة في الزخرف العربي تنتظر تفسيرها مما يعطي الزخرف قيمة ذوقية لاحد لها. ويعتبر فن الزخرف هذا الطابع المميز للعمارة الاسلامية، والفنان العربي الاسلامي هو صانع وحر في الى جانب كونه قادرا على ابتكار الاشكال الجديدة. لقد ملك الفنان كل الخبرات الفنية التي مكنته من صنع اعمال عظيمة نشاهدها في كل مكان عاش فيه. كان الحرفي ينفذ كل هذا الاعجاز الباهر في العمل الفني بواسطة ادوات بدائية في التفصليح والحفر والحف. وبالاناة والصبر والعمل الدؤوب يتمكن من اخراج لوحة فنية رائعة توضع في محراب او منبر او سبيل او سقاية ماء او تنفيذ لوحة على رقعة قاعة او قصر. واليوم بعد تطور العلوم التكنولوجية والآلات الميكانيكية اخذ هذا الفن يوظف كل ذلك في سبيل فنية اكثر اعجازا واشد ابهارا والذي اعطى الفنان دقة متناهية في عمله وصنع اشكالا بالغة التعقيد واختصر الزمن اللازم للتنفيذ.

اخذ الفنان يتصرف مع الزخرفة والنقش والتنجيد والصياغة بروح العصر وفلسفته، يبث فيها عصارة ذهنه وتجاربه ويتعامل مع العمل الفني ككل واحد، لينتج اعمالا تجمع صفات الامس ودقة العلم وقدرة مكنته، فكان فنا كاملا يجمع عظمة الامس وحضارة اليوم. لقد توارث بعض العائلات حرفة هذا النوع من فن، حيث دعمت خبرتها التاريخية مع التقنيات الحديثة. من تلك العائلات، في دمشق مثلا، عائلة الخياط، المؤلفة من اربعة اخوة فنانين هم محمد رضوان ومحمد فايز وعصام واسامة، توارثو الحرفة عن ابائهم واخذوا على عاتقهم نشر الفن الدمشقي الاسلامي العربي في العالم بجدوصبر وروح فنية نوافة. كان عملهم الاكثر اهمية مبنى السفارة السورية في بون الذي تضافرت فيه جميع انواع الفنون العربية بروح دمشقية اصيلة تدل على اتحادره من حضارة عريقة تمد جذورها الى خمسة الاف سنة ولا تزال شامخة. وهذا المبنى ليس الوحيد بخصائصه النادرة بل هناك كثير من الاعمال المنفذة في البلدان العربية كالقصور في المملكة العربية السعودية والمملكة الاردنية والقطر والبحرين ولبنان والقصور ومساجد ومنازل تمتد جسورا من التواصل بين فنون الدمشقية والاصالة العربية في كل مدينة من ارجاء العالم العربي.

ولاخراج هذه الهبة من الاطار العائلي الى الاطار الوطني يصبح ضروريا افتتاح مدارس متخصصة تبحث في تاريخ التزيين والنقش والزخرف الاسلامي كما عاشه ابن الفنطقة في الخانات والتكايا والمدارس والجوامع. كما ينبغي جمع كل الفنانين والمعماريين البارعين في هذا المعهد الاصيل في تلك المدارس لاشاعة العمارة الاسلامية على اوسع نطاق، كونها دليل هوية وانتماء الى الارض، وكونها ولدت من رحم الضرورة البيئية والمناخية والحساسية الانسانية للفرد.

ان من اكثر الجالات خصبا للفنون الارابيسك هي منتجات الفضة والنحاس كالصناديق متعددة الاستخدامات والطاولات والخناجر وادوات الزينة وغيرها. وتتميز زخرفة الارابيسك بكونها تابى رغبة الفنان في الابتعاد عن رسم الانسان والحيوان، الحرمة دينيا في التجسيد، وحتى العناصر النباتية تجيء محورة احيانا كي لايحاكي فيها الفنان عناصر الطبيعة، دون ان يبتعد عن الاسس الرئيسية التي يرتكز عليها فن الزخرفة كالتوازن والتقابل والتماثل والتناظر والانسجام. ومن يذهب الى سوق التكية السليمانية وسعد دمشق، وقريبا من خان اسعد باشا، والى سوق الحميدية يجد فنونا عجيبة من الموزاييك الصدفي والخزف والجلد والخشب والزجاج المعشق. تدهشه تلك الغزارة في الشغولات وكأن الفنان المحلي يعيش وقته الطويل بصناعة الجمال الذي ينثر حوله نفحات روحية واضحة. انها الزوجة بين ماهو حسي، متمثلا بالصخور والاحجار الكريمة والمعادن والخشب، مع ماهو روحي ولانهائي يسعى الى امساك المطلق وتجسيده رمزيا، عبر الدوائر والمثلثات والخطوط والفضاءات التي تكرر نفسها والنجوم والاقواس. ومما يلفت النظر حقا، ان الفنون الزخرفية نمت وتطورت تاريخيا في مسار عملي اكثر من تطورها نظريا. فالتنظير في هذا الحقل لم يبدأ الا في حقب متأخرة، في العصور الحديثة تقريبا.

غرفة فرجينيا وولف :
الحلم البسيط للمبدعات !!

دمشق: ابراهيم حاج عبدي

ثمة معطى ثقافي في الثقافة العربية المعاصرة يفيد ، خير الكلام ماكان لفظه فحلا ، ومعناه بكرا وهو اعلان عن قسمة ثقافية يأخذ فيها الرجل اخطر ما في اللغة وهو (اللفظ) ويبقى للمرأة المعنى الذي لاوجود له خارج اللفظ ، ويبدو ان مثل هذا الامر ينطبق على معظم الثقافات وفي مختلف العصور ، الامر الذي دفع النقاد والمهتمين الى البحث في هذه الاشكالية المتمثلة في تبعية المرأة للرجل في مختلف شؤون الحياة ومن ضمنها الكتابة الابداعية ، دون ان يستطيع احد لجازفة باعطاء اراء حاسمة او حلول ناجزة بل ان كل جديد في هذا السياق يطرح اسئلته التي لاتني تفتح الباب امام اسئلة اخرى . بيد ان هناك تباينات في مقاربة الموضوع لجهة الاهمية التي تكتسبها هذه الدراسة او تلك ، وعليه فان بعض الدراسات لاتعدو كونها اضافة متواضعة ومكررة ، في حين تتميز دراسات اخرى بأهمية خاصة مثلما هي الحال مع كتاب (غرفة خاصة بالمرء وحده) للروائية والناقدة البريطانية فرجينيا وولف ذلك ان الاسئلة التي اثارتها وولف في كتابها المذكور الصادر عام 1929 لاتزال تتفاعل في الاوساط النقدية وتطرح نفسها كأسئلة ملحة تتعلق بالحاضر ـ رغم مرور اكثر من سبعة عقود على طرحها ـ ويجمع النقاد على ان الكتاب عمل كلاسيكي متماسك ينطلق من تجربة حقيقية لامرأة مبدعة تميزت ازاؤها وتقييمها لعمل النساء الادبي بالجرأة ، والدقة ، والدراية الامر الذي حفظ للكتاب حيويته وجعله مستمرا في تيار الثقافة الجارف والتقلب من خلال عودة النقاد اليه وتحليله واعادة تقييمه وهو ماتجده في كتاب الناقد رضا الظاهر العنون ب(غرفة فرجينيا وولف) دراسة في كتابة النساء (دار المدى) .

في البداية يستعرض الباحث مجموعة من الاسباب التي دفعته لانجاز بحثه ويطرح ثلة من الاسئلة الاشكالية والفاحيم الملتبسة ، لماذا كتابة النساء ؟ ولماذا غرفة فرجينيا وولف ؟ وماذا تعني النسوية ؟ وغيرها من الاسئلة التي تدور في ذهنه وتشكل حافزا للاقدام على كتابة بحثه مجتهدا في البحث عن الاجوبة .

ان النسوية ـ حسب رأي مؤلف الكتاب ـ مفهوم سياسي يعتمد مقدمتين اساسيتين ، الاولى تشير الى ان التفاوت في الجنس هو اساس اللامساواة البنيوية بين النساء والرجال والتي تعاني النساء بسببها من الظلم الاجتماعي اللنهجي . وتشير المقدمة الثانية الى ان اللامساواة بين الجنسين ليست نتيجة للضرورة البيولوجية وانما خلقتها البنية الثقافية للاختلاف في الجنس وهذا المفهوم يزود النسوية بمرتكزها الزدوج ، فهم الاليات الاجتماعية والسيكولوجية التي تشكل وتوبد اللامساواة والسعي ، بالتالي ، الى تغيير تلك الآليات .

ويشير الباحث الى الخلط الذي يقع بين مفهومي ، كتابة النساء ، والكتابة النسوية ، ويحاول التمييز بين المفهومين . فالاول يعني ماتكتبه النساء من وجهة نظر النساء سواء كانت هذه الكتابة عن النساء ، او عن الرجال ، او عن اي موضوع اخر . اما الثاني فيعني الكتابة من وجهة نظر نسوية سواء كانت هذه الكتابة من ابداع امرأة وهي الغالبة ، او من ابداع رجل وهي النادرة .

اما لماذا غرفة فرجينيا وولف ؟ فان الكتاب برمته جاء خصيصا للاجابة على هذا السؤال و الباحث لايدعي بان كتابه ـ الذي نحن بصدده ـ يشكل قفزة جديدا في مثل هذا النوع من الكتابة ، انما يحاول تأويل الاسئلة الطروحة والبحث عن دلالاتها في ثقافتنا الراهنة ، ويسعى الى تصوير الشكل النقدي الذي استقبل به كتاب وولف وأسئلتها الجادة مثل ، كيف جرى تصوير النساء في نصوص الرجال الادبية ؟ ما العلاقة بين انتهاكات نصوص النساء واضطهادهن في المجتمع ؟ ماسر غياب النساء عن التأريخ الادبي ؟ هل هناك جماليات نسوية مستقلة بذاتها ؟ ومن العيار الادبي ؟ ولماذا حين نتأمل الكتب العظيمة تحضر في الذهن آليا اسماء الكتاب الرجال ؟ وهل هناك حقا اختلافات جوهرية بين كتابة الرجال وكتابة النساء ؟

ولمقاربة مثل هذه الاسئلة العميقة وضعت دراسات كثيرة بينها بالطبع كتاب فرجينيا وولف غرفة خاصة بالمرء وحده الذي ينطلق من حجة تراها الوثوقة اساسية وتتمثل في ان المرء يجب ان يمتلك مالا وغرفة خاصة به اذا ما اراد ان يكتب رواية . فكما ان للمرأة غرفة خاصة للطبخ ، واخرى للاستقبال ، وثالثة لتربية الاطفال فانها يجب ان تملك ايضا غرفة خاصة تخلد فيها الى التأمل والراحة والاصغاء الى صوت مشاعرها وعواطفها لان افتقار المرأة الى غرفة خاصة بها يعني ـ حسب وولف ـ افتقارها الى الراحة ، والى وقت للكتابة والتأمل فضلا عن افتقارها الى الثقة بنفسها والى التجربة والعلاقة الحميمة مع الاحداث ، والى الحرية في تحديد التأمل التوافق مع لحظة الابداع . وبالنسبة لوولف ـ كما يلاحظ الظاهر ـ فأنه في حرية تفكير المرء بما يرغب تكمن العلاقة الحميمة بين الكاتبة والعالم، العلاقة التي تمنح الكاتبة القدرة على استيعاب التفاصيل، وظلال اللحظات، وحقيقة الحدث وهي شروط أساسية في كتابة الرواية. واستيعاب التفاصيل، وظلال اللحظات، وحقيقة الحدث وهي شروط أساسية في كتابة الرواية. وترصد وولف، في هذا السياق، جوانب من العزلة الاجتماعية لكاتبات الماضي من خلال أمثلة، جين أوستن، شارلوت برونتي، جورج اليوت، وغيرهن لتأكيد رأيها.

إن الغرفة التي تطالب بها وولف قد يبدو في نظر البعض تبسيطا للعملية الإبداعية لكن هذا الشعور يزول حينما ندرك أبعاد ودلالات ما تطالب به هذه الناقدة البريطانية فهي تجادل ـ تأسيسا على وجود تلك الغرفة ـ بأن الكاتب (الكاتبة) نتاج ظروفه (ظروفها) التاريخية، وأن الشروط المادية هامة على نحو حاسم، "فبسبب افتقارهن إلى التعليم، والملكية، وبسبب القيود المفروضة على حرية حركتهن والمطالب المفروضة على وقتهن لأغراض أخرى غير الكتابة، لم تكن النساء في وضع يمكنهن من نسج المادة التي كانت إبداعات شكسبير، وهو مثال وولف المفضل، قد نسجت منها". وتورد مثالاً حول هذه الرؤية يتعلق بالتباين الإبداعي بين وليم شكسبير وشقيقته جوديث شكسبير، فهذه الأخيرة لم تتمكن من كتابة حرف بل انتهت محبطة على عكس شقيقها وليم الذي أبدع في الكتابة، أيما إبداع، وهذا الأمر يجد تفسيره في الحجج التي تسوقها الباحثة والتعلقة باتساع رقعة التجربة لدى الرجال وعلى عكس النساء. ولذلك فان الرجال وبحكم الحرية التي يتمتعون بها يعاينون الأحداث، والوقائع عن كثب وقد يعيشون هم الأحداث على أرض الواقع وهو ما من شأنه أن ينعكس في كتاباتهم بشكل مدهش ومتألق ومن هنا فهي تبرر للكاتبات قصورهن عن مجاراة الرجال، فتقول، مثلاً، عن شارلوت برونتي مبررة كتابتها المتواضعة" تذكرت أنها حرمت من حقها في التجربة، حيث فرضت عليها حياة راكدة في بيت الكاهن، ترتق الجوارب في وقت كانت تتوق إلى أن تجوب العالم حرة" بينما ترى وولف بأن "أفضل ما في روايات جوزيف كونراد، مثلاً، كان سيئتهي لو انه استحال عليه أن يكون ملاحا" وتضيف "أبعدوا اكل ما كان تولستوي يعرفه عن الحرب كجندي، وعن الحياة والمجتمع كشاب ثري وفر له تعليمه الوصول إلى مختلف أنماط التجارب، ستجدون (الحرب والسلم) رواية بائسة "لتستنتج وولف أن التجربة ذات تأثير عظيم في الرواية.

تبحث وولف، إذن في العوائق المادية التي تواجهها النساء في الحياة الفعلية وفي التفكير. وتشير إلى أن ضمان الشروط المادية للحرية، وصفاء الذهن بالنسبة للكاتبات هو وحده الذي يسمح لهن بالمشاركة في إنتاج الأدب. ولتطوير حجتها - كما يرى الظاهر - تبحث وولف في الطرق الأكثر تعقيداً التي تؤثر بها الظروف المادية على الجوانب السيكولوجية للكتابة والعلمية الإبداعية ذاتها، إذ تقول، "إن تلك الشرك ليست منسوجة في الأثير من جانب مخلوقات غير مادية، وإنما هي نتاج معاناة كائنات إنسانية، ومرتبطة، بأشياء مادية ملموسة مثل الصحة والمال والبيوت التي نعيش فيها".

ورغم ما قد يبدو، في عصرنا الذي نعيش، من أن المرأة قد تغلبت على تلك الظروف ودخلت معترك الحياة بزخم وقوة لكن واقع الأمر ليس كذلك، وهو ما يؤكده الناقد السعودي عبد الله الغذامي في كتابه (المرأة واللغة) الذي يبين فيه الظلم الواقع على المرأة في الحياة، وفي الخطاب الثقافي، "تظهر المرأة وكأنما هي (كائن طبيعي) مطلق الدلالة، تام الوجود، من حيث الأصل، ولكنها تحولت بفعل الحضارة والتاريخ إلى (كائن ثقافي) جرى استلابها، وبخس حقوقها لتكون ذات دلالة محددة، ونمطية ليست جوهرا، وليست ذاتا، وإنما هي مجموعة صفات مستمدة أساسا من القيم الذكورية السائدة في المجتمعات "البطوبريكية" التي تنتقدها وولف بشدة.

إزاء هذه الحقائق تعرض مفهوم النسوية إلى كثير من الالتباسات والتشويهات فبسبب معايير المؤسسة الذكورية السائدة، والتعامل مع النسوية باعتبارها خطراً يهدد القيم البطريركية القائمة، واستثمار بعض الاتجاهات النسوية الضيقة الأفق، والتي حولت القضية إلى معركة أجناس، وافرغتها من محتواها الثقافي، فأبعدت، بالتالي، إبداع المرأة سجينة "غيتو" المطالب النسوية الصرفة، وأسير عزلة جديدة تتعارض مع منطلقات وأسس النقد التطرف "الانتقامي" الذي توجهه هذه الاتجاهات إلى النظام البطريركي، حسب ما يقول رضا الظاهر الذي يضيف، بسبب ذلك كله مازالت المؤسسة الذكورية تواصل حربها ضد كل اتجاهات النسوية بدون تمييز من منطلق أن النسوية مرتبطة بـ "كره" الرجال.

وحتى المرأة المبدعة، إذ تدافع عن قضايا تحرير المرأة تقع في شرك الاستسلام للقيم الذكورية السائدة الأمر الذي يقلل من قيمة إبداعها وجدواه، وهذا ما لاحظه جورج طرابيشي حين وصف كتابات الكاتبة المصرية نوال السعداوي، مثلاً، بأنها "ضد الأنوثة" وكذلك يستنتجه القارئ من إبداعات الروائية السورية غادة السمان التي تهرب من جسدها الأنثوي الذي "ينز حليبا، ودما" وتبحث بدلا منه عن الجسد الأنثوي المرمري، المثير والشتهى والمطلوب من قبل الرجال، ومثل هذا التوجه تسوغه وولف بالقول، "إن شعور المرأة في مرحلة مبكرة من الوعي، بسطوة الثقافة الذكورية السائدة يضطرها إلى استخدام أساليب هذه الثقافة ومحاكاة مبكرة من الوعي، بسطوة هيمنتها".

لاشك أن الموضوع الذي يبحث فيه الناقد رضا الظاهر شديد التعقيد، ولئن اتكأ في رؤيته النقدية على ماجاء في كتاب فرجينيا وولف "غرفة خاصة بالمرء وحده" لكنه يجتهد في استنباط الكثير من التأويلات والتفسيرات، ويتصدى، بعينه الثاقبة، لمسألة ما فتئت تشغل بال الباحثين والنقاد دون أن يتجرأ أحد منهم على طرح لحلول النهائية، فمسألة كتابة النساء، وما يحيط بها من ظروف والتباسات هي من التعقيد بحيث ستبقى محور اللنقاش والجدل طالما بقيت المرأة تحلم بغرفة خاصة بها.

-الكتاب ، غرفة فرجينيا وولف، دراسة في كتابة النساء.
-الكاتب ، رضا الظاهر .
-الناشر ، دار المدى للثقافة والفنون، دمشق ـ 2001.